

استمداد علم الكلام من القرآن والسنة

أهداف الدرس

1. أن أتعرف مظاهر استمداد علم الكلام من القرآن والسنة؛
2. أن أثبت دعوة القرآن والسنة إلى النظر والاستدلال العقلي في الاعتقاد؛
3. أن أهتدي بالقرآن والسنة في تثبيت العقيدة والدفاع عنها.

تمهيد

اعتنى القرآن الكريم عناية كبيرة بتثبيت العقيدة الصحيحة وإبطال العقائد الفاسدة، حيث حث على النظر في الخلق لمعرفة الخالق، كما أن النبي ﷺ وجه الصحابة إلى إعمال عقولهم وفق ما أمر الله تعالى به؛

فكيف تم استمداد علم الكلام من القرآن والسنة؟ وما هي تجليات هذا الاستمداد فيهما؟

نص الانطلاق

قال الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله: «أما الكلام في أصول التوحيد فمأخوذ أيضا من الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَاءُ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَبَسَدَتْ﴾ [الأنبياء: 22]. وهذا الكلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له، وكلام المتكلمين في الحجاج في التوحيد بالتمانع والتغالب وإنما مرجعه إلى هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿مَا آتَىٰ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ أَتَىٰ اللَّهَ تَقَبُّ كُلِّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون 92]، وكلام المتكلمين في الحجاج في توحيد الله إنما مرجعه إلى هذه الآيات التي ذكرناها، وكذلك سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القرآن». [رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، ص 89].

وقال أيضا: «وكل ما ذكرناه من الآي أو لم نذكره أصل وحجة لنا في الكلام فيما لم نذكره من تفصيل وإن لم تكن مسألة معينة في الكتاب والسنة؛ لأن ما حدث تعيينها من المسائل العقلية في أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة قد تكلموا فيه على نحو ما ذكرناه» [رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، ص 94].

الفهم

استخلاص المضامين:

– كيف تم استمداد علم الكلام من القرآن والسنة؟

الشرح:

– **التمانع والتغالب:** دليل عقلي على وحدانية الله

يعني: استحالة وجود خالقين متكافئين .

– **الحجاج:** إقامة الحجة على الخصم .

التحليل

يتناول هذا الدرس استمداد علم الكلام من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وذلك ما نتناوله في المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: استمداد علم الكلام من القرآن الكريم

أخذت أصول العقيدة حظا وافرا في القرآن الكريم، سيما ما نزل منه بمكة؛ من خلال إقامة الأدلة على تثبيت العقيدة الصحيحة وإبطال العقائد الفاسدة باستعمال مختلف الأساليب والحجج والبراهين وهو موضوع علم الكلام، قال الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله: «أما الكلام في أصول التوحيد فمأخوذ أيضا من الكتاب» [رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، ص 89]، وقال الرازي رحمه الله: «وأنت لو فتشت علم الكلام لم تجد فيه إلا تقرير هذه الدلائل، والذب عنها ودفع المطاعن والشبهات القادحة فيها، أفترى أن علم الكلام يذم لاشتماله على هذه الأدلة التي ذكرها الله أو لاشتماله على دفع المطاعن والقوادح عن هذه الأدلة؟ ما أرى أن عاقلا مسلما يقول ذلك ويرضى به» [مفاتيح الغيب، 2/325].

وقد ساق الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله مجموعة من النصوص والقضايا العقدية التي تدل على استمداد علم الكلام من القرآن الكريم، وخاصة ما يتعلق بأدلة التوحيد والبعث، وهذه بعض ملامح استمداد علم الكلام من القرآن الكريم مادة ومنهجاً:

1. أن القرآن الكريم هو المصدر الأول لقضايا العقيدة بأقسامها: الإلهيات والنبويات والغيبيات، ووظيفة علماء الكلام أن يبينوا هذه العقائد ويدافعوا عنها بالحجج العقلية والنقلية.

2. أن القرآن الكريم يخاطب العقل ويعظمه وينوه به، ويدعو إلى إعماله في النظر والاستدلال في العقائد، من خلال دعوته إلى النظر في خلق الإنسان وتكوينه وخلق الأشياء من حوله، والكون وملكوته، والتفكر في ذلك كله للاهتداء إلى الخالق سبحانه وتعالى والتصديق بأنبيائه ورسوله.

3. أن القرآن الكريم أمرنا بدعوة المخالفين إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، وقواعد علم الكلام هي الوسيلة لمجادلة المخالفين والمعاندين، قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

4. أن القرآن الكريم يبين أصول العقيدة الصحيحة، ويدفع الشبهات عنها من خلال حكايته عقائد المخالفين وإقامة البراهين والحجج العقلية على بطلانها، ومن ذلك:

• تثبيت توحيد الله عز وجل وإبطال دعاوى المشركين، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ الْيَقِينِ إِلَّا اللَّهُ لَبَسُوا مَا بَيْنَهُمَا﴾ [الأنبياء: 22]. قال الإمام أبو الحسن: «وكلام المتكلمين في الحجاج في التوحيد بالتمانع والتغالب فإنما مرجعه إلى هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ أَتَى اللَّهَ بِغُلَامٍ فَاِذْ عَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَكَانَ خَائِضًا فِي الْمَوَاقِفِ﴾ [الأنبياء: 101]. وكلام المتكلمين في الحجاج في توحيد الله إنما مرجعه إلى هذه الآيات التي ذكرناها، وكذلك سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القرآن». [رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، ص 89].

• تثبيت عقيدة البعث، وردّه على المنكرين الذين استبعدوه فتعجبوا من جوازه، فقالوا: ﴿أَمْ عَإِشَآؤُكُمْ تَارَةً أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الأنبياء: 23]. وقالوا: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 77]. قال الإمام أبو الحسن: «هذا الكلام منهم إنما ورد بالحجاج في جواز البعث بعد الموت في القرآن تأكيداً لجواز ذلك في العقول»، وقد أجاب القرآن الكريم المقرين بالخلق الأول منهم بقوله: ﴿فَلْيُحْيِهَا إِلَهِنَّ أَنْشَأْنَاهُنَّ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: 78]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [الرؤم: 26]. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 28]. «فنبههم بهذه الآيات على أن من قدر أن يفعل فعلاً على غير مثال سابق فهو أقدر أن يفعل فعلاً محدثاً، فهو أهون عليه فيما بينكم وتعارفكم، وأما

الباري جل ثناؤه وتقدست أسماؤه فليس خلق شيء بأهون عليه من الآخر». [رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، ص 90].

• رده على منكري النبوات في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْغَيْبِ أَنَّهُمْ الْغَيْبُ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۚ﴾ 94 ﴿فَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُخْتَمِينَ لَنَرْنَاهُمْ فِي السَّمَاءِ مَلَكَاتٍ رَسُولًا ۚ﴾ 95 [الإسراء، 94-95].

المسألة الثانية: استمداد علم الكلام من السنة النبوية

بالإضافة إلى القرآن الكريم يستمد علم الكلام مادته ومنهجه من السنة النبوية الشريفة، باعتبارها مصدرا نقليا من مصادر العقيدة، ومن ذلك ما أشار إليه الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله من احتجاج علماء الكلام على القائلين بقدوم العالم، في قوله: «وأما ما يتكلم به المتكلمون من أن الحوادث أولا، وردهم على الدهرية القائلين إنه لا حركة إلا وقبلها حركة، ولا يوم إلا وقبله يوم، والكلام على من قال ما من جزء إلا وله نصف، لا إلى غاية، فقد وجدنا أصل ذلك في سنة رسول الله ﷺ حين قال: «لا عدوى ولا طيرة»، فقال أعرابي: «فما بال الإبل كأنها الظباء تدخل في الإبل الجربى فتجرب»، فقال النبي ﷺ: «فمن أعدى الأول؟» فسكت الأعرابي لما أفهمه بالحجة المعقولة. وكذلك نقول لمن زعم أنه لا حركة إلا وقبلها حركة، لو كان الأمر هكذا لم تحدث منها واحدة لأن ما لا نهاية له لا حدث له». [رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، ص 92].

وعلى المنهج النبوي في القياس والاستدلال يستند المتكلمون في نفي تجسيم وتشبيه الخالق بال مخلوق، ومن ذلك ما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَدَ لِي غُلَامٌ أَسْوَدُ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى ذَلِكَ؟» قَالَ: لَعَلَّ نَزْعَهُ عَرِقٌ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنُكَ هَذَا نَزْعَهُ» [صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد].

قال الإمام أبو الحسن الأشعري: «فهذا ما علم الله نبيه من رد الشيء إلى شكله ونظيره، وهو أصل لنا في سائر ما نحكم به من الشبيه والنظير، وبذلك نحتج على من قال: إن الله تعالى وتقدس يشبه المخلوقات وهو جسم، بأن نقول له: لو كان يشبه شيئا من الأشياء لكان لا يخلو من أن يكون يشبهه من كل جهاته، أو يشبهه من بعض جهاته. فإن كان يشبهه من كل جهاته وجب أن يكون محدثا من كل جهاته، وإن كان يشبهه من بعض جهاته وجب أن يكون محدثا مثله من حيث أشبهه؛ لأن كل مشتبهيين حكمهما واحد فيما اشتبها له، ويستحيل أن يكون المحدث قديما والقديم محدثا، وقد

قال تعالى وتقدس: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقال تعالى وتقدس: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. [رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام، ص 92].

التقويم

1. أوضح بعض تجليات استمداد علم الكلام من القرآن والسنة.
2. أبين المنهج القرآني في إثبات العقيدة.
3. لماذا اعتمد القرآن الكريم على الأدلة العقلية في بعض قضايا العقيدة؟

الاستثمار

قال ابن جزي رحمه الله: «وأما أصول الدين فيتعلق بالقرآن من طرفين: أحدهما: ما ورد في القرآن من إثبات العقائد وإقامة البراهين عليها، والردّ على أصناف الكفار، والآخر: أنّ الطوائف المختلفة من المسلمين تعلقوا بالقرآن وكل طائفة منهم تحتجّ لمذهبها بالقرآن وترد على من خالفها، وتزعم أنه خالف القرآن، ولا شك أنّ منهم المحق والمبطل، فمعرفة تفسير القرآن أن توصل في ذلك إلى التحقيق مع التسديد والتأييد من الله والتوفيق».

[التسهيل، 1/18].

أتأمل النص وأجيب عن الآتي:

1. أحدد موضوع النص.
2. أحلّ مجالات تعلق أصول الدين بالقرآن الكريم.
3. أوضح كيف تتعلق الطوائف المختلفة من المسلمين بالقرآن؟ وكيف يتوصل إلى القول الحق من الخلاف؟

الإعداد القبلي

أراجع مصادر الأشاعرة، وأبحث عن الآتي:

1. العلاقة بين علم المنطق وعلم الكلام.
2. أهمية العلوم العقلية في علم الكلام.